المبحث الأول

أثر السياق القرآني في الدلالة على المحذوف وتقديره

الحذف هُوَ إسقاط كلمة أو حرف يخلف منها ما يقوم مقامها لإيراد المعنى الذي يطلبه السياق[1] من طريق وجود قرينة تدل على المحذوف مع وجود غرض بلاغي يحققه هَذَا الحذف[2].

وَفِي القرآن صيغ الكلام صياغة منسجمة مع خلو هَذَا الكلام من بعض أجزائه مع قدرة اختبار المتلقي على فهمه لهذا النص مع وجود شيء محذوف منه[3]، فالحذف إذن «هُوَ اللفظ المدلول عليه بالقرائن»[4].

وسور القرآن الكريم فيها أنماطاً تركيبية معينة فإذا لم تشتمل على بعض هذه التراكيب يعد ذَلكَ حذفاً، وَهَذَا الحذف لا يكون عشوائيّاً بل لحكمة قَدْ تنبّه لها العلماء وَقَدْ لا يعلمونها، أو قَدْ علموا جزءاً منها[5].

ومن أمثلة حذف كلمة من الآية، قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾[6]، فحذف هنا المضاف وَهُوَ (أهل) وأقام المضاف إليه مقامه، لمعنى ارتضاه السياق، وَهُوَ أسلوب طلب أمر، الغرض منه الالتماس[7]

---

(١) ينظر: رسالتنا فِي اللغة: ٧٠.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦٥.

(٤) مختصر المعاني: ٤٠.

(٥) البلاغة الميسرة: ٤٦٦.

(٦) سورة يوسف، من الآية: ٨٢.

(٧) ينظر: سر صناعة الإعراب: ٣٩/١؛ وينظر: فقه اللغة وسر العربية: ٢٢٣.

وأهل القرية هم أهل مصر، فحذفت (أهل)، لأنّ القرية والعير لا ينبئان عن صدق أخوة يوسف، لأنّ القرية لا تُسأل ولا تجيب[1] وأنّ أبيهم غير مصدّق لهم، ومصداق ذَلِكَ قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ [2]﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[4]، أي: تناولها الميتة، فحذف لفظ (أكل) وَهُوَ المضاف وبقي (الميتة) وَهُوَ المضاف إليه، لأنّ الحكم الشرعي إنّما يتعلق بالأفعال دون الإجرام، وتقدير التناول أولى من تقدير الأكل ليدخل فيه شرب ألبانها، فحذف لفظ (أكل)، وقدر مكانه (تناول) ليشمل كُلّ ما يختص بالميتة[5] والله أعلم.

أمّا حذف حرف من الكلمة داخل الآية لغرض بلاغي يقتضيه معنى السياق والحذف لا ينسب إلى مضمون القرآن بل إلى الغرض البلاغي منه وَهُوَ يرجع إلى تركيب اللغة العربية، فمن روائع البيان القرآني المعجز أنّه يحذف حرفاً من بعض ألفاظه فِي موضع ويذكره فِي موضع آخر، لعلة فِي ذلك[6] ومثاله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[7]، وردت هذه الآية فِي قصة موسى والخضر، عندما رافق

(١) ينظر: تفسير الإمام الشافعي: ٢/٩٨٢.

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٨٢.

(٣) ينظر: تفسير الطبري: ١٦/٢١٢.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ٣.

(٥) ينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ١٧٧.

(٦) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٦.

(٧) سورة الكهف: ٧٨.

موسى الخضر وأمره بعدم سؤاله له عمّا يفعله، فكان يفعل أموراً يرى فيها موسى أنّ الخضر مخالف لها، فينكرها عليه، وبعد أن نبّأه بتأويل أفعاله وأخبره أنّه لم يفعل ذَلِكَ من تلقاء نفسه[1] بل هُوَ إلهام من الله[2]، ثم قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3]، ووجه البيان البلاغي هنا أنّه فِي المرة الأولى كَانَ موسى فِي قلق محيّر جرّاء أفعال الخضر فراعى السياق القرآني الثقل النفسي الذي يعيشه موسى عليه السلام فأثبت التاء ليتناسب مع الثقل النفسي لموسى، فالثقل فِي نطق الكلمة بزيادة الحرف، لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[4]، «وحذف فِي المرة الثانية بعد زوال الحيرة وخفة الهم عن موسى، ليتناسب خفة الهم مع خفة الكلمة بحذف الحرف الذي ليس من أصل الكلمة»[5]، وهذا من جمال تناسقات القرآن الكريم وسياقات ترتيبه المبهر والمعجز.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾[6] فحذفت التاء فِي (اسطاعوا) الأولى وأثبتت فِي (استطاعوا) الثانية، وذلك ليتناسب مع السياق، لأنّ تسلق السد أهون من نقبه، ففيه شيء لطيف وخفة وعدة ثقيلة، فناسب ذكر التاء، ليكون ثقل الكلمة مناسب لثقل الفعل

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٧.

(٢) ينظر: تفسير الجلالين: ٣٩٣.

(٣) سورة الكهف: ٨٢.

(٤) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٧.

(٥) البلاغة الميسرة: ٤٦٧.

(٦) سورة الكهف: ٩٧.

وخفة الكلمة مناسب لخفة الفعل[1].

فالتعبير فِي سياق الآيات لا يحتمل مرة ذكر التاء، ويحتملها فِي موضع آخر، فهذا ما يحكمه أثر السياق البلاغي القرآني، يتبين أنّ الحذف أبلغ من الذكر، لأنّ الحذف يذهب إلى وجوه التعظيم والقوة والثقل[2]. وهذه التوافقات السياقية في الحذف كان للنسق القرآني دوراً واضحاً فيها؛ إذ ناسب ذكر التاء وحذفها تناسقاً موسيقياً وأداءً صرفياً متميزاً لا تجدهُ إلا في كتاب الله فهذا من حُسن النظم والترتيب العجيب والتناسق المبهر لكتاب الله ﷻ.

أ – أهمية الحذف وقيمه الفنية:

إنّ الآلية المادية لبناء الكلام الدال على المعاني التي يراد الإعلام بها وإبرازها وإظهار محاسنها هُوَ الذكر والحذف، والتي تُعرف بقوى الإدراك اللمحي والإشاري، وقوى الاستدلال بقرائن الأحوال وقرائن الأقوال، والغاية التي سيق من أجلها الكلام والتأثير الانفعالي والنفسي، لدى متلقي الخطاب، وخاصةً أهل الفطانة والذكاء، وأهل الخبرة بأساليب وطرائق الكلام المختلفة، فهؤلاء يكفيهم الرمز وتقنعهم الإشارة عن صريح العبارة[3].

وَقَدْ يعتري الحذف أحد عناصر الجملة فِي اللغة العربية سواء العناصر الرئيسة أو غير الرئيسية، ويتجلى من هَذَا الحذف قيمة فنية تنسجم والنفس الإنسانية وَهَذَا يتجلى فِي روعة أسلوب القرآن الكريم، وإيقاعه وجرسه الفني، الناتج من التركيب اللفظي، الذي يتجلى منه المعنى الدلالي لآياته

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٧.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

(٣) ينظر: البلاغة العربية: ٣١٢/١.

الكريمة[1].

ويعد الحذف أبلغ من الذكر، ويكون للاختصار والاحتراز فِي إظهار المعنى اللائق دون الخل فِي تركيب الجملة بناءً على وجود قرينة تدل على المحذوف، وَهُوَ قسمان[2].

١- قسم يظهر المحذوف عند الإعراب، وَهُوَ ليس من البلاغة شيء، كما فِي قوله: (أهلاً وسهلاً)، فإن ناصب أهلاً وسهلاً، إن نصب الأهل والسهل يدل على ناصب محذوف يقدر بنحو جئت أهلاً ونزلت أو (حللت) مكاناً سهلاً، وليس فِي هَذَا الحذف من الحسن والأريحية.

٢- قسم لا يظهر فيه المحذوف عند الإعراب؛ وإنّما نعلم مكانه إذا تصفحنا المعنى، ووجد أنّه لا يتم إلاّ بمراعاته، مثل: (يعطي، ويمنع)، أي: يُعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولكن لا سبيل إلى إظهار ذَلِكَ المحذوف، ولو أظهرناه لزال ولضاع ذَلِكَ الرونق والقيمة الفنية.

ب- سياقات الحذف ودلالته الفنية والنسقية:

إنّ حسن دقائق اللغة وعجيب سرها وبديع أساليبها أنك قَدْ ترى الجمال والروعة تتجلى فِي الكلام إذا نحن حذفنا أحد ركني الجملة أو شيئاً من متعلقاتها، وَهَذَا نجده فِي القرآن الكريم فهو كتاب له نمطه الخاص فِي التركيب؛ إذ يجد المتمرس فِي أساليب العربية وطرائقها فِي التعبير أنّ نمط وتركيب الجملة العربية فِي القرآن فريد متميز[3].

---

(١) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٠٣؛ وينظر: علوم البلاغة: ٨٩.

(٣) ينظر: علوم البلاغة: ٨٩؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٥٦.

إنّ بلاغة الحذف تكمن فِي السبب الدلالي ولا يكون ذَلكَ إلاّ فِي النوع الاختياري منه لا الإجباري؛ لأنه يذهب إلى وجوه، فضلاً عن إنّه يكون فِي الجملة والكلمة والحرف[1].

والحذف هُوَ تخفيف، وفاعل التخفيف بالخيار فيه إن شاء حذف وإن شاء أقر، وذلك بحسب المواقع والحال والموضوع أي: الصورة الداخلية والخارجية لسياق الجملة[2].

والدلالة الفنية النسقية للحذف داخل السياق ما كَانَ فيه ما يوجب الإشارات على أسرار اللغة، قَالَ تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، وهنا قَالَ العلماء: يوجد جانب فني وبلاغي يؤدي إلى سبب الترخيم عند قراءة هذه الآية هُوَ أنّهم لشدة ما هم فيه عجزوا عن تمام الكلام، وهذه علة بلاغية؛ لأنّها تشير إلى ما وراء هَذَا الحذف من ضيق الصدر، وغلبة اليأس ومعاناة الهول، ومعاناة شغلهم عن إتمام الكلمة[3]، وهذا الحذف أعطى نسقاً صوتياً جمالياً جعل منه في غاية الروعة والبراعة التي هي من ضمن الإعجاز الصوتي للقرآن من خلال الاختيار لهذه العبارة الرقيقة والدقيقة.

ج- سياقات الحذف وأغراضه البلاغية والنسقية:

الحذف ملحظ نحوي دقيق المسلك له سماته المتفردة التي تجعله شبيهاً بالسحر، وإذا تأملنا النظم القرآني وجدنا أنّه فِي كثير من الأحيان يؤثر حذف اللفظ على ذكره، خاصةً إذا اقتضى المقام ذَلكَ، وسياق الحال[4].

---

(١) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

(٢) ينظر: أدب الخواص: ١/١١٧.

(٣) ينظر: علوم البلاغة: ٨٩.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٤٦؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٤.

والأساليب العربية يذكر فيها بعض الألفاظ التي تفيد بعض المعاني ويحذف فِي غير تلك الأساليب لأغراض يرتجيها، ولا يكون الحذف في بعضها الآخر يمكن أن يصح فِي كُلّ موقع من المواقع، بل تكمن إجادة الحذف فِي الموقع الذي يصح فيه ذَلِكَ مع إفادة المعنى، وَهَذَا السر البلاغي فِي العربية[1].

فالكلام ينقسم إلى عمدة، لا يسوغ حذفها إلاّ بدليل، وإلى فضلة يسوغ حذفها لغير دليل وهي متعلقات الجملة، لكن ليس معنى ذَلِكَ أنا مخيرين فِي الحذف متى شئنا، بل يرجع فِي ذَلِكَ إلى النكات البلاغية[2].

فهناك دواعي للحذف وأغراض بلاغية تدل عليها قرينة، ودلالة فحوى الكلام عليها، ويتعلق ذَلِكَ بتركه غرض من الأغراض الآتية[3]:

١- إخفاء الأمر من غير المخاطب، نحو (أقبل)، أي: (تريد علياً مثلاً).

٢- تيسير الإنكار أمست إليه الحاجة نحو (الله ينتقم منه) بعد ذكرنا لشخص لا نذكر اسمه، ليتأتى لنا عند الحاجة أن نقول ما أردته وما قصدته.

٣- الحذر من فوات فرصة سانحة، كقولنا عن منبه صاحب الهاتف (التلفون) أي: يرن هاتفك.

٤- ضيق الصدر من إطالة الكلام، نحو: (نعم) عندما يقبل علينا شخص، أي: (ماذا تريد أتيت)، ومنه إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن، وألم، أو ملل وسأم، أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شيء، أو إلى

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦٤.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة: ١٠٣؛ وينظر: الخلاصة فِي علم البلاغة: ١٦؛ وينظر: سر الفصاحة: ٢١١، وعلم المعاني: ١٠٢.

سماعه أمراً غريباً يدعو إلى التعجب ويثير الاستغراب، فمنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[1]، فقد حذف المسند إليه وتقديره (أنا عجوز عقيم) وسر بلاغة حذفه يرجع إلى تعجبها من بشارة الملائكة، واستبعادها أن تلد وهي عقيم وقد كبرت وزوجها شيخاً كبيراً، وكأنَّ المقام وما هي فيه من تعجب واستبعاد واستغراب يُضيف بالمسند إليه ويقتضي حذفه وهذا الترتيب في نسق الحذف جعله أكثر تأثيراً وإعجازاً.

وهنا تظهر دقائق البلاغة ومكنون سرها ورائع أساليبها وإبراز دونك سياقها، وشرط حسن الحذف أنّه متى ظهر المحذوف زال ما كَانَ فِي الكلام من البهجة والطلاوة والدقة فِي التأثير.

(١) الذاريات: ٢٨-٢٩.